(2684) 1172

دراسة للدكتور
معروف البخيت

وصفي التل .. مقاتلاً عسكرياً ومفكراً استراتيجياً

تنشر (الرأي) دراسة قدمها رئيس الوزراء السابق العين معروف البخيت في الندوة التي اقيمت امس بمناسبة ذكرى استشهاد وصفي التل ، التي تعد دراسة شاملة عن الشهيد الراحل وفيها اطلالة على جوانب مهمة من شخصيته لم تكن معروفه من قبل خاصة العسكرية منها .

وقد اجتهد البخيت في دراسته في تتبع حياة الشهيد التل منذ نشأته وبواكير حياته والظروف التي مر بها والتي اسهمت بوضوح في بناء شخصيته واكسبتها صفاتها . تاليا نص الدراسة .

البخيت خلال الندوة

(الرأي)

رمز وطني وتاريخ اردني

• إن الحديث عن رمز وطني أردني، بحجم وصفي التل، وبالأساس حول شخصيته وتاريخه القتالي وفكره العسكري؛ يطول، ويتطلب قدراً كبيراً من الدقة والتبصر والحكمة. والحديث عن هذا الجانب من نضال وفكر وصفي، هو حديث يمس تاريخنا الوطني وتلك الجهود الأردنية والمواقف التاريخية للأردن: قيادة هاشمية ونخباً ومواطنين في الدفاع الشجاع البطولي عن عروبة فلسطين، قتالاً باسلاً، وصدقاً ووضوحاً فكرياً. وهو جانب مهم وموثق، لولا أنه، وبكل أسف، كان عرضة للإجحاف من قبل البعض، أو التجاهل من قبل آخرين... وفي محطات عديدة، لأسباب سياسية أو دعائية آنية، ومواقف التطرف الكاذب، وخداع النفس، والتضليل، وتبرير العجز.

• إنني أدرك تمام الإدراك، صعوبة الحديث عن الجانب العسكري في شخصية وصفي، بعيداً عن فكره وآرائه ومواقفه السياسة؛ لأن الصفات العسكرية في شخصية وصفي وفكره كانت حاكمة وطاغية وأثرت في كل تفاصيل حياته، كما سيتبين لاحقاً.

• ومع الأخذ بهذا التحوّط، يبقى القصد هنا؛ إتاحة الفرصة أمام الأجيال الشابة والقادمة، للاطلاع على تجربة وصفي الوطنية، ووضع فكر الشهيد ومواقفه في السياق الوطني الأردني. وهكذا، لا بد من الوقوف على الآراء والأفكار التي قدمها الأردنيون في القضايا المصيرية للأمة، التي لو تمّ الأخذ بها في حينها لتغير الكثير، ولما وصلت الأمة إلى ما هي عليه الآن.

• وقبل الدخول في صلب الموضوع، لا بد من تسجيل جملة من الملاحظات:

أولاً: لا أعلم عن أي مسؤول سياسي أردني رفيع، بحث ودرس وحلل وكتب وحاضر ونشر حول قضايانا الوطنية أكثر مما فعل وصفي التل.

ثانياً: تمحورت كل كتاباته حول القضية الفلسطينية ؛ تحليلاً لفشلنا وعجزنا عن الدفاع عنها والوقوف بوجه المشروع الصهيوني، واقتراحاً لمشروعات عربية إستعداداً لمعركة المصير وتحرير فلسطين؛ يكون الأردن فيها رأس الحربة ومفتاح الصدام. فهو إذن، بهذا المعنى؛ صاحب مشروع، قاتل وناضل وجادل وأستشهد من أجله.

ثالثاً: إن علم وصفي التل وثقافته ومعارفه العسكرية الواسعة والعميقة،لم تأت من تدريبه العسكري أوخدمته في الجيش البريطاني وجيش الإنقاذ،فحسب؛وإنما يقيناً،هي حصيلة إهتمام شخصي وقدرات ذهنية، وتوفردافعية ذاتية قوية لديه.

رابعاً: تمتع وصفي بمهارات عقلية مكنته من القدرة على التحليل الإستراتيجي، إضافةً لخبرته ومعرفته بأمور الميدان والتعبئة الصغرى، وسعة إطلاعه على شؤون علم الحرب بشكل شامل. لقد كان مهتماً بالفكر العسكري وبالتاريخ العسكري، وبشكل خاص الحروب الأوربية.

شخصية وصفي التل

• لقد كان لظروف نشأة ودراسة وصفي، تأثير بالغ وملحوظ في تكوين صفاته العسكرية والقيادية. ولد عام ١٩١٩ في بلدة عربكير في شمال العراق، وعاش حتى عام ١٩٢٤ في منزل جده لأمه الكردي إبراهيم بابان. فإذا سلمنا بأن شخصية الإنسان تتشكل في السنوات الأربع أو الخمس الأولى من حياته؛ فهذا يفسر وجود بعض الخصائص الكردية لديه من مثل الصلابة والعناد ألتي تميز بها طيلة حياته. يضاف إلى ذلك؛ إذا ما صحت الرواية بأن جد وصفي قام بحبسه ذات يوم مع أفعى وطلب منه أن يقتلها؛ فإن هذه الحادثة تدل على سمات شخصية الجد من جدية وصلابة، وشخصية وصفي الذي نجح في التحدي. هذا، وعندما عاد وصفي إلى إربد لم يكن يعرف العربية، ولكنه بإرادته القوية تأقلم بسرعة مع زملائه خاصة عندما التحق بمدرسة إربد.

• ظهرت عليه في تلك الفترة صفات الإستقلال والعناد وحب الابتكار.أثناء دراسته، في الطفولة والشباب،كان هناك جملة من الحوادث والمواقف، أظهرت الميول العسكرية والقيادية لديه، وفي مقدمتها؛

أولاً: التعلق بأدوات القتال وصناعة ما يماثلها. مثل؛ صناعة القوارب الخشبية وصناعة طائرات الورق المقوى وإضاءتها ليلاً، وصناعة رصاص لبندقية الصيد من الأسلاك المعدنية.

ثانياً: الإهتمام بالتاريخ ومتابعة مجريات الأحداث في فلسطين. ساعده في ذلك إعجابه في معلم مادة التاريخ حينذاك، الأستاذ سعيد الدرة.

ثالثاً: خروجه ورفاقه إلى الصيد في بعض المواقع القريبة من إربد. وتعلمه الرماية، وإتقان إصابة الهدف.

رابعاً: مشاركته في تأسيس جمعيات سرية أثناء الدراسة (الكف الأسود، وجمعية الحرية الحمراء) مع رفاق الدراسة أمثال: (حمد الفرحان وشفيق أرشيدات وإسماعيل النابلسي وهزاع المجالي وآخرون) وقيامهم بصنع المتفجرات وإلقاء القنابل والقيام بالمظاهرات أيام الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦.

• أثناء دراسته في الجامعة الأميركية في بيروت؛ وبدافع من شعوره القوي بالقضايا القومية، بدأ وصفي مع رفاق له بالتعرف على مختلف الحركات القومية التي كانت تستقطب الطلاب العرب وخاصة الجدد. ناقش وصفي وجادل العديد من ناشطي هذه الحركات، وقرر بعد قناعة الالتحاق بحركة القوميين العرب. كانت الحركة تقوم على المفهوم القومي العام، دون برامج واضحة حول القضايا الاقتصادية والاجتماعية. كان الاعتقاد السائد لدى منتسبي حركة القوميين العرب بأنه لا مفر من المواجهة مع الصهيونية. وأن الصدام أمر حتمي. كما أن المعركة مع قوى الاستعمار البريطاني والفرنسي الداعمة للمشروع الصهيوني؛ قادمة لا محالة. ولذا؛ لابد من التدرّب على حمل السلاح. وفعلاً، بدأ شباب القوميين العرب بالتدرب على استخدام السلاح في أحراج لبنان. وكان وصفي في الطليعة منهم. هذا وكانت تنشب نقاشات بين ناشطي القوميين العرب والقوميين السوريين؛ تحتدّ وتتطور أحياناً إلى صدامات وعراك، أصيب وصفي في إحداها.

• ومع بدء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩، تعاطف الكثير من العرب مع ألمانيا لموقفها العدائي من اليهود. كما إنها تقاتل أعداءهم بريطانيا وفرنسا. وعند قيام حركة رشيد عالي الكيلاني الانقلابية في العراق، في أيار ١٩٤١، اشترك وصفي وزملاؤه الأردنيون في مظاهرات صاخبة تأييداً لتلك الحركة. وتحمّس بعضهم للتطوع بالقتال. وسافروا إلى بغداد. ومن هؤلاء حمد الفرحان، إلا أنهم عادوا من الطريق عندما علموا بإخفاق الحركة.

• في ذلك العام، أنهى وصفي دراسته وعاد إلى الأردن.إلتحق بسلك التعليم وتعين في مدرسة الكرك لمدة شهر وتمّ نقله بعد ذلك إلى مدرسة السلط. روى بعض زملائه وطلابه إنه كان أثناء تدريسه؛ يأخذ وقتاً طويلاً لمناقشة القضايا الوطنية مع الطلاب،ويسهب في الحديث عن مخاطر المشروع الصهيوني وضرورة الوحدة العربية.

الحياة العسكريّة

• كان وصفي يؤمن، وربما بتأثير من مبادئ القوميين العرب، بأن من الواجب أن يتمّ تأهيل قادة عسكريين يتولون مسؤولية القيادة في المواجهة المصيرية. وهذا التأهيل لن يتم إلا من خلال الإلتحاق بالجيوش النظاميّة. ويبدو أنها كانت أمنية لديه أن يصبح ضابطاً ويكتسب خبرة ميدانيّة.

• في صيف عام ١٩٤٢، حدث تحوّل في حياة وصفي، إثر حادثه تتعلق بوالده. قضى وصفي فترة في سجن المحطة إلى جانب والده؛ وأنهت بذلك عمله في سلك التعليم. بعد ذلك، تقدم وصفي بطلب للإلتحاق بالجيش العربي، الذي كان يمرّ في مرحلة توسع وتطوير. إلا أن طلبه رُفض بداعي سياسة عدم قبول الجامعيين في الجيش.

• في ذلك الوقت، فتح الجيش البريطاني باب التطوع؛ فلم يجد وصفي مجالاً إلا الإلتحاق بالجيش البريطاني مع أكثر من عشرة آلاف عربي،أغلبهم فلسطينيون. هذا وكانت قيادات حركة القوميين العرب تشجع وتحث على الإلتحاق بالجيش البريطاني بهدف التدرب على حمل السلاح وإكتساب الخبرة القتالية إستعداداً للمعركة المقبلة،وأسوة بما كان يفعل اليهود.

• إلتحق وصفي بفرع الكلية العسكريّة البريطانية في صرفند في فلسطين، في أواخر عام ١٩٤٢. وشارك في دورة المرشحين لمدة خمسة أشهر تخرج بعدها برتبة ملازم ثاني. قال السيد فؤاد طهبوب، أحد زملائه في الكلية: «كان وصفي من القلة القليلة، من الفئة المختارة الذي أدرك ضرورة التدرب على حمل السلاح. ومن الفئة الشجاعة أيضاً». وقد وصفه بأنه كان يعمل بجد وحماس على إستيعاب الدروس النظرية والعملية، حيث كان التدريب شاقاً. والواقع، لقد تميز الجيش البريطاني، دوماً، بالتدريب القاسي العنيف، والتقيد الدقيق بالأعراف والتقاليد الصارمة، مع الإلتزام بمنهجية تفكير تعتمد العقل المنظم.

• مع نهاية الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥، بدأت بريطانيا بتسريح معظم قواتها، فخرج وصفي من الخدمة بعد ثلاث سنوات وصل فيها إلى رتبة «كابتن» نقيب. لقد إستفاد من هذه الخبرة العملية، ورسخت لديه منظومة القيم العسكرية الصارمة من إنضباط وإلتزام وإحترام الوقت وطريقة التفكير المتسلسلة الواضحة.ويقيناً،إن هذه التجربة تركت آثاراً عميقة واضحة في أسلوب تفكيره وعمله.

• ما بين عامي ١٩٤٥ – ١٩٤٧، عمل في المكتب العربي في القدس والمعني بشرح القضيّة الفلسطينية، وبإدارة موسى العلمي. أُعجب العلمي بذكاء وحماس وصفي وتم تعيينه في مكتب لندن. والملفت للنظر في هذه الفترة، أن وصفي بادر بتقديم مذكرة إلى العلمي شرح فيها أسلوب مواجهة القوات الصهيونية واقترح إنشاء قوة عسكرية فلسطينية، تتألف من وحدات مقاتلة صغيرة، لمواجهة التنظيمات العسكرية اليهودية.

• في تشرين ثاني ١٩٤٧، إتخذت هيئة الأمم قرارها بتقسيم فلسطين. عند ذلك، قرّرت جامعة الدول العربية تشكيل لجنة عسكرية مقرها دمشق، والتي بادرت إلى دعوة المتطوعين القادرين على حمل السلاح للإلتحاق بجيش الإنقاذ. كانت هذه هي الفرصة التي إنتظرها وصفي وإستعد لها؛ فكان في طليعة من لبوا النداء ليلتحق بجيش الإنقاذ.

الخبرة القتالية

• بدأ وصفي عمله بإشغاله موقع ركن عمليات تحت قيادة اللواء إسماعيل صفوت، رئيس اللجنة العسكريّة. ولاحظ وصفي منذ البداية، جهل القيادات المسؤولة عن التخطيط في جيش الإنقاذ بالمعلومات عن العدو وقواته. ولهذا كان اللواء صفوت شأنه شأن العديد من كبار العسكريين والسياسيين في ذلك الوقت يميل إلى الاستهانة بالقوات اليهودية. وبدأ وصفي يشرح لهم عن إمكانيات اليهود العسكريّة وتشكيلاتهم ذات التدريب الجيد. إثر ذلك، بادر كعادته، وقدم تقريراً مفصلاً، شاملاً تقدير موقف للطرفين، ومقترحاً خطة عمليات للجيوش العربية. وأوصى أن يتبناها اللواء صفوت وأن يعرضها على القادة العرب.

• كانت الملامح العامة للخطة تقوم على أن تتقدم القوات السوريّة واللبنانية وكذلك جيش الإنقاذ من الشمال، على أن تقود التقدم قوة مدرعة عراقيّة لاحتلال مدينة حيفا. وأن يقوم الجيش المصري، بنفس الوقت، بالتقدم على المحور الساحلي لإحتلال مدينة يافا. أما القوات الأردنية والعراقية؛ فتعمل على إحتلال مرتفعات القدس وإجتيازها وصولاً إلى البحر. ويتضح في الخطة أمران؛ الأول أن الهدف من إحتلال يافا وحيفا هو حرمان القوات اليهودية من إستخدام الموانئ الرئيسية. أما الأمر الثاني؛ فهو إدراك وصفي لأهمية مرتفعات القدس إستراتيجياً؛ إذ أن من يسيطر عليها يسيطر على الساحل الفلسطيني غرباً. ولكن، ولسوء الحظ، لم يعرض اللواء صفوت الخطة على أي قائد عربي، بذريعة أنهم لو إطلعوا عليها لأحجموا عن إرسال قواتهم للجبهة!

• وعلى كل الأحوال، بدأ جيش الإنقاذ عملياته، قبيل دخول القوات العربية في ١٥ أيار ١٩٤٨، في مناطق وسط فلسطين. فشل جيش الإنقاذ، وإنهزم في أولى معاركه وهي معركة الزراعة وبعد ذلك في معركة (مشمار هاعيميك). في نفس الوقت، لم تهتم قيادة جيش الإنقاذ بمعارك القدس التي كان يخوضها عناصر من جيش الإنقاذ مع متطوعي الهيئة العربية العليا، كما أنها ارتكبت أخطاء عسكرية فادحة في معركة حيفا أدت إلى سقوطها. وإجمالاً فشل جيش الإنقاذ في كل المعارك والمواقع، مما أدى إلى سقوط مدن فلسطين الرئيسية: يافا وحيفا وعكا وطبريا وبيسان، ومعظم مدينة القدس، في أيدي القوات اليهودية، قبل دخول الجيوش العربية؛ مما أدى إلى صدور قرار انسحاب جيش الإنقاذ من فلسطين وعودته إلى دمشق لإعادة التنظيم.

• إثر دخول الجيوش العربية إلى فلسطين؛ ظهرت الحاجة للاستعانة بجيش الإنقاذ لدعم الجيشين السوري واللبناني. في هذه المرحلة، كان قد تم تعيين وصفي التل قائداً لفوج اليرموك الرابع. وشارك فوج وصفي في الهجوم الناجح لإعادة احتلال المالكية، باقتحام مكشوف جريء ومفاجئ، وبشكل صاعق، أدى إلى هزيمة العدو وانسحابه بشكل غير منظم. ومع أن المعركة كانت مثاليّة، إلا أن قيادة جيش الإنقاذ لم تقم بإستثمار الفوز ومطاردة فلول العدو.

• بعد ذلك، قاد وصفي فوجه في معركة الشجرة. وقاتل وفوجه ببسالة وشجاعة نادرة؛ حيث أصيب بشظية بقيت آثارها في رجله. لكن الإصابة، لم تمنع وصفي من الإستمرار بالمشاركة في المعارك اللاحقة. إندفع بعد ذلك إلى ترشيحا وسخنين مواجهاً القوات اليهودية في سلسلة من المعارك. وعن شجاعة وصفي في هذه المعارك، قال أحد رفاقه: «لم أعرف أحداً فاق وصفي بشجاعته وجرأته وحكمته في القتال».

• وعندما صدر قرار جيش الإنقاذ في ٢٩/ ١٠/ ١٩٤٨، بإنسحاب قواته إلى جنوب لبنان، بداعي الخوف من تطويقها من قبل العدو؛ رفض وصفي الأوامر. وناقش وتساءل كيف ينسحب وقواته لا تزال صامدة، وتتمتع بمعنويات عالية، ولم يتمكن العدو من التقدم خطوة واحدة! يضاف إلى ذلك وجود قوات في حالة إشتباك مع العدو وليس من السهل إنسحابها قبل أن تقطع التماس مع العدو. لقد أرسل للقيادة رسمياً موضحاً عدم ضرورة الإنسحاب ومؤكداً إستعداده للقيام بهجمات معاكسة. ومع إصرار القيادة على الإنسحاب؛ كان فوج وصفي آخر من إنسحب من الجليل إلى لبنان.

• فيما بعد، إنتقل فوج وصفي إلى الجولان. وكان وصفي قد أصبح في هذا الوقت برتبة مقدم. في تلك الفترة، قام الضابط حسني الزعيم بإنقلاب عسكري في سوريا في ٣٠/ ٣/ ١٩٤٩. وعندما وصل إلى وصفي أنباء المحادثات التي كان يجريها حسني الزعيم لفرض الهدنة، غضب وعرض على ضباط الفوج فكرة إنتقال الفوج إلى منطقة نابلس لإستئناف القتال. وافق الضباط وبدأ الفوج بالإستعداد لتنفيذ الفكرة. علمت القيادة السوريّة بالأمر؛ فإستدعت وصفي وأمرت بسجنه في سجن المزة. وبعد فترة تم ترحيله للأردن.

العودة إلى الأردن

• عاد وصفي وبدأ حياته مرة ثانية بالوظيفة العامة. وخلال الإثنتي عشرة سنة التالية؛ تقلد وصفي مسؤوليات عديدة وفي مواقع مختلفة سياسيّة وإعلاميّة ودبلوماسية، وصولاً إلى تشكيله الحكومة لأول مرة عام ١٩٦٢.

• حين عاد إلى الأردن، كانت هزيمة ١٩٤٨ قد تركت أثراً بالغاً في نفسه. ومع أن الهزيمة عامّة لكن وصفي المقاتل المحترف إعتبرها مأساة شخصية. لقد كتب في عام ١٩٥٠ عدة مقالات في مجلة الهدف الأسبوعية التي كانت تصدر في القدس عن قصة جيش الإنقاذ؛ إعتبر وصفي أن جيش الإنقاذ في تشكيله وقتاله وهزيمته، برهان واضح على خطأ إجتهاد الجامعة العربية في السياسة والحرب وفي تقديرها للموقف في فلسطين.. مؤكداً أن أي دراسة لهذا الجيش تظهر بوضوح خطوط الهزيمة التي رسمها العرب لأنفسهم في فلسطين. وبيّن أنه من الظلم أن نتهم نحن عرب فلسطين بالضعف، وأننا نتحمل قسماً من مسؤولية الهزيمة،وسنوجه التهمة نحن لأنفسنا وبصورتها الصحيحة.

• وعلى مدار ١٣ عدداً نشر وصفي بحثاً عن جيش الإنقاذ؛ إتسم بالصراحة والصدق مع النفس. إستعرض في بحثه طريقة تشكيل جيش الإنقاذ والعقبات التي واجهت التشكيل، وأسلوب التجنيد والتدريب، وتشكيل القيادة؛ مستعرضاً بالتفصيل المعارك التي خاضتها تشكيلات الجيش، واقفاً على أسباب الهزائم في معظم مجرياتها.

• توصل التلّ إلى القناعة بأن هزيمة جيش الإنقاذ سببها عدم استخدام إمكانياتنا المتوفرة، وإن عدم استعمالها عن عمد أو إهمال أمرٌ أشد ألماً من الهزيمة نفسها. ومع هذا، فهو يعتقد إنه عندما نسخر كل إمكانياتنا ونضعها بوعي وتصميم في المعركة، وعندما نعمل بجد ومسؤولية ونفشل؛ فلا مجال للوم النفس.

• لقد فند وصفي كل أعذار المسؤولين عن فشل جيش الإنقاذ، التي تركزت في نقص الضباط والقادة وقلة الجنود المدربين وكذلك قلة السلاح. وبيّن أن الضباط أصحاب الخبرة موجودون ولكن لم يتم جمعهم، ولم يتم بذل جهد حقيقي لتدريب المتوفر منهم.أكد على أنه كان هناك في فلسطين ٢٨ ألف مجند سابق في الجيش البريطاني أو قوة حدود شرق الأردن،لم تعمل قيادة جيش الإنقاذعلى إستدعائهم أو جمعهم. أما بخصوص قلة السلاح؛ أوضح وصفي أن هذا عذر لا يستند إلى الواقع، لأن تجار الأسلحة تقدموا إلى كل الدول العربية بعروض لتأمين الأسلحة. ولكن الجامعة العربية تلكأت وترددت في إتمام الشراء. ووصف قصة شراء الأسلحة بالمؤلمة والطويلة. وبأنها كانت سلسلة لا نهاية لها من الأخطاء والحماقات والسرقات، مؤكداً بأن السلاح كان متوفراً،ولا يحتاج سوى جهود مخلصة مصمّمة على شرائه.وخلص وصفي إلى القول: «لو أن عدواً لنا كلفناه بإعداد خطة لهزيمتنا،لما إستطاع أن يبدع في وضعها مثل ما أبدعنا نحن في سوق أنفسنا لهزيمة مخزية مخجلة».

• على أنه عاد ونشر سلسلة من المقالات عن أسباب فشل الجيوش العربية في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ في صحيفة «الرأي» التي أصدرها القوميون العرب في عمان عام ١٩٥٣، وفي صحيفة «الحياة» اللبنانية في عام ١٩٥٥.

• ويمكن إجمال رأي وصفي بأسباب هزيمة ٤٨ بالنقاط الرئيسية التالية:

١. جهل العرب الخرافي بالمعلومات عن العدو وإمكانياته؛ وهي الأساس في تقدير الموقف في الحرب. لقد بلغت اللامبالاة إلى حدّ أن جيشين عربيين اشتركا في الحرب، ولم يكونا يمتلكان خرائط عسكريّة لفلسطين!

٢. ضعف القدرة على حشد القوى البشرية وتدريبها بسبب تعدّد الجهات المسؤولة وتنافرها وعدم التنسيق بينها، مع وجود الحساسيات والتكتلات العائلية والحزبية المتنازعة.

٣. إتخاذ القرارات في الجيوش العربية بشكل منفرد وبدون تنسيق أو حتى إعلام القيادة الموحدة التي أرادها السياسيون صورية.

٤. سوء الخطة الحربية العامة، بسبب الاختلافات والحساسيات؛ بحيث تمّ تعديلها بشكل جذري أكثر من ٢٠ مرة. والواقع أن الخطة كانت نتيجة منطقية لسوء تقدير الموقف، ولضعف الاستعداد، إضافة لإهمالها لمبادئ أساسيّة في الحرب مثل تركيز الجهد وأخذ زمام المبادرة.

٥. مع أن السلاح كان متوفراً لو صدقت النيّة في الحصول عليه؛ إلا أن السلاح الذي امتلكه العرب في ١٥ أيار ١٩٤٨، كان كافياً لو تمّ استخدامه بأصول وحزم.

• وبالنهاية، خلص وصفي إلى أن الهزيمة في فلسطين كانت عسكرية بالمقام الأول. ذلك أن العرب أرادوا فرض إرادتهم بقوة السلاح وفشلوا. وعلل سبب الهزيمة بعدم حشد القوى المتوفرة وما يمكن دفعه للمعركة بالزمان والمكان المحددين؛ فالحرب كما يراها صدام شامل بين إرادتين، مركزاً على أهمية الطاقة العقلية والإبداعية للقوى المقاتلة، وترجمتها هي السرعة والمناورة، وهما ما لم يتوفر عند الجانب العربي.

• من جانب آخر، إرتأى وصفي أن التجزئة، وهي مازالت، ركن الهزيمة الأول وعنوان الضعف أما طريق الثأر للهزيمة فواضح؛ فهو مجموع أولويات وبديهيات، أولها الوحدة، وثانيها الاستعداد. وطريق العلاج يبدأ بالوحدة ثم بالتدريب والاستعداد على الأسس نفسها والطريق نفسها التي سلكها العدو.

فكر وصفي الإستراتيجي

• بداية، من يستعرض أبحاث وكتابات ومحاضرات وندوات وصفي التل، خلال مسيرته العسكريّة والمدنية، وخاصة في عقدي الخمسينات والستينات من القرن الماضي، وأمثلة ذلك: (قصة جيش الإنقاذ ١٩٥٠، أسباب الفشل في الحرب الفلسطينية ١٩٥٣، أسباب هزيمة العرب العسكرية في فلسطين ١٩٥٥، مخطط فلسطين ١٩٦٣، سبل النهوض القومي ١٩٦٥، دور الخلق والعقل في معركة التحرير ١٩٦٦، الوجود الإسرائيلي ١٩٦٩، حرب حزيران ١٩٦٩، النضال والذاكرة السياسية ١٩٦٩، حقائق المعركة ١٩٧٠، خطة عمل ١٩٧١)؛ يجد أن هذا الجهد الكبير تركز بصورة كلية على القضيّة الفلسطينية، وكيفية الاستعداد للوقوف بوجه المشروع الصهيوني وتحرير فلسطين. ولا بد أن يصل إلى استنتاج؛ لا بل قناعة، بأن وصفي التل كان مشغولاً ومسكوناً بهمّ وهاجس القضية الفلسطينية إلى درجة الهوس.

فلسفة القوّة

لقد آمن وصفي بفكرة القوة والإرادة. وهذه الفلسفة لها جذور في فكرة القومي؛ فحركة القوميين العرب قامت في جانب منها على فكرة أن القيادة الواعية هي التي يجب أن تقود الناس وتعمل على توعيتهم وحشدهم لتحقيق أهداف الأمة. وعليه، فهي تؤمن بأهمية التنظيم والانضباط. ولعل تجربته العسكريّة القاسية تركت في نفسه آثاراً عميقة، ورسخت في نفسه أهمية القوّة، وجعلته يقول: الصراع تنازع بقاء والغلبة للقوي الأصلح. من جانب آخر، يستدلّ من الكتب التي اقتناها، على أن معظم قراءاته كانت في السياسة والفلسفة والتاريخ العسكري، والتي بدورها عززت قناعته بضرورة فرض الإصلاح على المجتمع. وهذه القناعة بضرورة حشد القوه وتحضير الأمة، كانت الدافع الذي جعله يبادر دوماً بوضع الأفكار والخطط وتقديمها لأصحاب القرار والتبشير بها بدون كلل.. وهي التي دفعته لتأييد دخول الأردن في حلف بغداد، على سبيل المثال؛ حين وقف ضد تيار الدعاية وحملة التضليل الواسعة ضد الحلف، وجادل بجرأة وبوضوح، بأهمية الحلف للأردن، وأن انضمامنا له سيعمل على تقوية الأردن عسكرياً. والمنطق كان: إن دخلنا في معركة التحرير، نشارك ونحن أقوياء. وإن لم تأت المعركة؛ فنكون قد كسبنا أسلحة جديدة وجيشاً قوياً. والخلاصة، أن فكرة القوّة، وأهميّة حشد قوى الأمة، كانت واضحة لديه وتكررت في كتابات وآراء التل. ولعل أوضح دليل، هو إنه أول من أطلق تعبير «مجتمع قرطاجنة»؛ أي مجتمعها حين حاصرها الرومان، بقصد حشد كل قوى المجتمع لصالح المعركة.

حتميّة الصدام

أدرك وصفي مبكراً، بأن المشروع الصهيوني ليس مشروعاً استعمارياً تقليدياً. بل هو مشروع إحلالي؛ يهدف إلى تغيير الأوضاع القائمة جغرافياً وبشرياً وجذرياً وأبدياً، والهيمنة على المنطقة بالاستغلال السياسي والاقتصادي. ولذا؛ آمن بأن الصدام مع هذا المشروع قادم لا محالة، وأن الاعتقاد بأننا يمكن تحاشي صداماً مصيرياً مع الصهيونية هو وَهْم. ليس هذا فحسب، بل دعى علناً وبجرأة إلى إزالة الخرافات والأوهام من تخطيطنا وتحديداً: (١) خرافة الحلول السلمية بشتى أشكالها وصورها (٢) خرافة احتواء إسرائيل (٣) خرافة الاعتماد على الضغوط الدولية والرأي العام العالمي (٤) أوهام انسحاب إسرائيل من بعض الأراضي التي احتلتها دون ثمن غال تكسبه، أو دون أكراه شديد لا يكون بمحضّ إرادتها. وبالتالي، فقد آمن دوماً بأن الحل الوحيد الصحيح، هو أن نبدأ فوراً بجعل المعركة عنوان وجود وقناعة، وحياة، وقياس حياة؛ تستحوذ كعنوان وكقناعة على وجودنا كله. على أنه في محاضرة ألقاها وصفي عام ١٩٦٩ في نادي الأردن في عمان عن حرب حزيران ١٩٦٧، قال في إشارة عن المفاوضات مع إسرائيل: إنه في حال انسحبت إسرائيل من الأراضي التي احتلتها في حرب ١٩٦٧ فمفاوضات الصلح يجب أن ترتكز على أساس تنفيذ قرار التقسيم الذي اتخذته الأمم المتحدة عام ١٩٤٧. ويلاحظ إنها كانت المرة الوحيدة التي يشير فيها إلى مفاوضات. وربما يعود السبب في هذا الطرح إلى إنه لم يرغب في أن يبدو عدمياً أو متشدداً وإنه لا يقبل قيام إسرائيل من الانسحاب من الضفة الغربية وغزة. ومع ذلك فإن اشتراطه بأن يكون هدف المفاوضات هو: العودة لقرار التقسيم حتما لن يكون مقبولاً لإسرائيل، ولذا لابد من الاستعداد للمعركة. وباعتقادي، أنه بالرغم من الإشارة اليتيمة للمفاوضات؛ فإن وصفي لم يغيّر قناعاته أبداً حتى لحظة استشهاده. والدليل على ذلك استمراره بالحديث عن المعركة والعمل على التخطيط لها حتى آخر لحظة في حياته.

عنصر الزمن: لقد ترسّخت القناعة لدى التل بأن عنصر الزمن ليس في صالح العرب. وهو الزمن المتعلق بالمعركة التي يواجهها العرب مع المشروع الصهيوني. كان يرى بأن العدو يتحرك بإستراتيجيته العظمى على مبدأ القفزات؛ يحتل ثم يناور حتى يكسب أطول وقت ممكن لتثبيت احتلاله وهضم هذا الاحتلال، ثم ينطلق للقفزة التالية. أما العرب؛ فإنهم حين يلقون السلاح بعد أي قفزة ناجحة للعدو، ويبتعدون عن الطريق الصحيح؛ يتحوّلون إلى دوامة الشكوك والمرارة والضياع والتنافر والاسترخاء. يضاف إلى ذلك، حين يتوقف العرب عن الصدام يتحول الزمن ضدهم، بتشعّب الاجتهادات والمسارات الجانبية، وتبدأ عملية استنزاف ذاتي؛ فنعطي بذلك العدو الوقت اللازم للاستعداد لقفزته التالية. وقد أبدع وصفي في إيجازه لفكرته عن الزمن حين قال: إن الشخص الذي يكرر خطأه، يكون الزمن ضده. والشخص الذي يسير على الطريق الصحيح يكون الزمن معه. وهكذا، دعى إلى نبذ وهم أن الزمن يعمل لمصلحتنا كعرب.

إعمال العقل

لقد اعتمد التل طوال حياته العسكرية والمدنية على تقدير الموقف، كعملية عقلية تؤسّس لاتخاذ قرار. وتقدير الموقف هو تعبير عسكري بالأساس. ويعني؛ اتباع سلسله من الإجراءات لدراسة معضلة معيّنة، تبدأ بجمع المعلومات اللازمة ثم تطوير وتحليل الحلول الممكنة لها، وصولاً إلى اختيار أفضل الحلول للمعضلة. كان يعتقد بأنه طالما أن المعركة مع إسرائيل مصيرية؛ فلابد وأن يكون تقديرها والإعداد لها في مستوى عال من الفكر والموضوعية، يتناسب مع خطورتها. لذا، يجب أن يجري تقييم للمعطيات تقييماً علمياً محضاً، بعيد النظر، لا تؤثر فيه العواطف والانفعالات والاعتبارات المؤقتة قصيرة النظر. لقد عزى وصفي أسباب هزائمنا العسكرية إلى ضعف تقدير الموقف، بتجاهل الحقائق وتغليب العواطف والأهواء. ولقناعاته هذه، ركز التلّ على دور الخلق والعقل في معركة التحرير. وربما بسبب هذا النهج العقلي وصف البعض الشهيد التلّ بأنه «إمتلك عقلاً بارداً وقلباً دافئاً».

المبادرة والمناورة: أكد وصفي أهمية أخذ زمام المبادرة؛ من خلال مواجهة حقائق المعركة وحشد الجهد وتركيزه باتجاه معين. ولذا اعتبر إن من أهم أسباب